

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس : تفسير الآيات ١- ٥ قصة أصحاب الفيل والحكمة منها.

١٩٨٥-٧-٥٥

جعل الله تعالى سورة الفيل تأكيداً لسورة الهمزة :

﴿ أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ \* أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ \* وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ \* تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ \* فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾  
إنَّ الله سبحانه وتعالى في سورة الهمزة:

﴿ وَيَلِّ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لُحْمَةً \* الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴾

توعّد الكفار بعذاب النار، فجاءت سورة الفيل تأكيداً لهذا الوعيد، وإن الذي توعدده الله سبحانه وتعالى الكفار يوم القيامة لا شك واقع، لأن نوعاً من الهلاك حصل لقوم اجترؤوا على حرم الله عز وجل فأهلكهم الله عز وجل، فجعل سورة الفيل تأكيداً لسورة الهمزة، قال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾

إنَّ النبي عليه الصلاة والسلام وُلد بعد خمسين يوماً من حادثة الفيل، فحينما جاء أبرهة الأشرم من الحبشة ليهدم الكعبة، كان النبي صلى الله عليه وسلم في بطن أمه، وبعد خمسين يوماً ولد النبي عليه الصلاة والسلام، والخطاب موجّه للنبي عليه الصلاة والسلام، فكيف يقول الله عز وجل لشيء لم يره النبي عليه الصلاة والسلام:

﴿ أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾

الإنسان يتلقى معلوماته الأولية عن طريق السمع والبصر :

بعضهم قال: (ألم تر) هنا بمعنى (ألم تعلم)، وما دامت (ألم تر) بمعنى (ألم تعلم)، فلم عدل الله تعالى عن قوله: (ألم تعلم) إلى قوله: (ألم تر)؟ الحقيقة أن الإنسان يتلقى معلوماته الأولية عن طريق السمع والبصر، قال تعالى:

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

[سورة النحل: ٧٨]

أول شيء يتلقاه الإنسان من العالم الخارجي الأصوات عن طريق الأذن، ولذلك أكثر الآيات القرآنية التي تتحدث عن السمع والبصر بدأت بالسمع لأن السمع يسبق البصر، ولو أن مولوداً ولد لتّوه وسمع صوتاً لتحرك، لكنك لو وضعت يدك أمام عينيه فلا تطرفان إلا بعد ثلاثة أيام، فالمعلومات التي تستقيها عن طريق السمع تكون أولاً، ثم المعلومات التي تستقيها عن طريق البصر، وهذه المعرفة سماها العلماء المعرفة الحسية، فإمّا هو شيء سمعته أو شيء أبصرته، ومع أن حاسة السمع تسبق حاسة البصر إلا أن حاسة البصر أقوى من حاسة السمع، بمعنى أن الشيء الذي تشاهده لا يحتاج إلى برهان، لكن الشيء الذي تسمعه يحتاج إلى دليل، يحتاج أن تقول لصاحبه: صادق أو كاذب، فصار أعلى درجة من ثبوتيات الحقائق ما شاهدته بعينيك. سيدنا علي رضي الله عنه يقول: " بين الحق والباطل أربعة أصابع." بين أن تقول: سمعت، وبين أن تقول: شاهدت، قال تعالى:

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

[سورة النحل: ٧٨]

### الإنسان تميّز على الحيوان بأنه يملك إضافة إلى المعلومات الحسية معلومات استدلالية:

المفسرون قالوا: الأفئدة هي العقل، أو هي الدماغ، أو هي الفكر، فأد الشيء بمعنى ربطه، والإنسان عنده مدركات حسية، فمنها ما رآه بعينه، وما سمعه، وما ذاقه بلسانه، وما شمه بأنفه، وما لمس به يده، فهذه مدركات حسية، وعنده معارف استدلالية، هذه المدركات الحسية تعطيه المواد الأولية، ومنها يستنبط المعلومات والحقائق.

لذلك فالإنسان تميّز على الحيوان بأنه يملك إضافة إلى المعلومات الحسية معلومات استدلالية، وهذه التي سماها ربنا سبحانه وتعالى علم اليقين، أما عين اليقين فمشاهدة الشيء، فمن حيث التسلسل هناك سمع، وهناك بصر، وهناك استدلال، فقد ترى دخاناً، فنقول: لا دخان بلا نار، فتستدل بالدخان على النار. ومن حيث الثبوت واليقين فالمعرفة التي حصلت عن طريق الرؤية تقع في قمة هذه الحقائق، فهل يُعقل أن يكون إخبار الله عز وجل عن حادثة الفيل أقلّ رتبة من الرؤية؟ وهذا يعني أنك أيها الإنسان إذا أخبرك الله بشيء فيجب أن تتلقفه وكأنك تراه لثبوتته، لذلك ربنا عز وجل عدل عن قوله تعالى "ألم تعلم، ألم تُخبر، ألم تسمع"، قال سبحانه: "ألم تر"، لأن الذي يخبرك الله به من حيث اليقين والثبوت والتأكيد هو بمرتبة الرؤية:

### ﴿ أَلَمْ تَرَى ﴾

بقيت هذه (لم)، فيعربونها حرف جزم ونفي وقلب، أمّا أنها حرف جزم فلأنها تجزم الفعل المضارع، وأمّا أنها حرف قلب فلأنها تقلب زمنه من الحال أو الاستقبال إلى الماضي، أيّ أما رأيت في الماضي،

والله سبحانه وتعالى أخبر نبيه عما فعله بأصحاب الفيل، وموضع الفيل بعد قليل أفصل فيه، فهذه (تَرَى) فعل مضارع، وحينما دخلت عليها لم قلبت زمنه إلى الماضي، وأنت يا محمد يجب أن ترى، أو لقد رأيت، أو ألم تر، فهذه الهمزة همزة استفهام، وهذا الاستفهام استفهام إنكاري، والاستفهام الإنكاري فيه نفي، والفعل مسبوق بحرف نفي فصار نفي النفي إثباتاً، فنفي النفي إثباتٌ:

### { أَلَمْ تَرَى }

أي لقد رأيت.

**الله سبحانه وتعالى إذا روى قصةً فهي عبرة تبقى إلى نهاية الحياة وعلى مدى الأجيال:**

القصة كما تروىها الكتب أن ملك الحبشة كان نصرانياً، أراد أن يبني في عاصمة ملكه صنعاء كعبة كالتي في مكة المكرمة، وأراد أن يصرف الناس إليها، وأن يصرف الناس عن مكة إلى صنعاء، فسمع بهذا أحد الأعراب ممن كان في مكة، ف جاء إلى صنعاء وقعد في هذا البيت الكعبة المزعومة، بمعنى آذاه، فحينما بلغ ملك الحبشة هذا الحدث غضب، وأرغى وأزبد، وقال: لآتين الكعبة ولأهدمناها، فجهز جيشاً كبيراً جراراً، وتوجه نحو مكة المكرمة.

القصة طويلة فيها إضافات، قد تكون صحيحة، وقد تكون غير صحيحة، فساق لهدم الكعبة جيشاً قوامه الأفيال، وجعل في مقدمتهم فيلاً عظيماً، ولما وصل إلى ظاهر مكة طلب زعيمها، وكان عبد المطلب زعيم مكة، وكان قائد هذا الجيش أبرهة الأشرم قد استولى على منتي ناقة لعبد المطلب، فلما التقى أبرهة الأشرم بعبد المطلب لم يحدثه إطلاقاً عن غزو الكعبة وعن هدمها، بل قال: أريد أن ترد علي إبلي، فأبرهة الأشرم عجب أشد العجب، أنا أتيت لهدم كعبتكم، ولهدم مقدساتكم، ولهدم دينكم، ولهدم مكان حج العرب إليكم، وتقول لي: ردّ علي إبلي!! فلما واجهه بهذا العجب، قال عبد المطلب: أنا رب الإبل، وإن للكعبة رباً يحميها، فأرسل الله سبحانه وتعالى عليهم طيراً أبابيل، أي طيراً ضعيفة، رمتهم بحجارة فأبادتهم عن آخرهم، كما أن الفيل الكبير الذي تقدم الجيش أبي أن يتقدم نحو الكعبة، وعاد إلى صنعاء، وحينما كان يوجّه نحو صنعاء يمشي، وإذا وُجّه نحو الكعبة توقف:

((عَنْ الْمُسَوَّرِ بْنِ مَخْرَمَةَ وَمَرْوَانَ يُصَدِّقُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَدِيثَ صَاحِبِهِ قَالَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَمَنَ الْخُدَيْبِيَّةِ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ بِالْعَمِيمِ فِي خَيْلٍ لِفُرَيْشٍ طَلِيعَةٌ فَخُدُوا ذَاتَ الْيَمِينِ فَوَ اللَّهُ مَا شَعَرَ بِهِمْ خَالِدٌ حَتَّى إِذَا هُمْ بِقَنْتَرَةَ الْجَيْشِ فَأَنْطَلَقَ يَرْكُضُ نَذِيرًا لِفُرَيْشٍ وَسَارَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالنُّبَيْيَةِ الَّتِي يُهْبَطُ

عَلَيْهِمْ مِنْهَا بَرَكَتٌ بِهِ رَاحِلَتُهُ فَقَالَ النَّاسُ: حَلَّ حُلٌّ فَالْحَتُّ فَقَالُوا: خَلَّتْ الْقَصْوَاءُ خَلَّتْ الْقَصْوَاءُ فَقَالَ  
النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا خَلَّتْ الْقَصْوَاءُ وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ...))

[البخاري عَنْ الْمُسَوَّرِ بْنِ مَخْرَمَةَ]

الحقيقة هذه قصة، ولكن القرآن الكريم إذا ذكر قصة فينبغي أن تكون لها مدلولات كبيرة باقية على مر الأزمان والأيام، وما جاء في القرآن الكريم من قصص ليست مجرد رواية حدث، ولا إملاء وقت فراغ، ولا إمتاع سامع، هذه كلها أهداف رخيصة لكتاب القصص، ولكن الله سبحانه وتعالى إذا روى قصة فهي عبرة تبقى إلى نهاية الحياة، وعلى مدى الأجيال.

إذا نسبت الفعل إلى الله مباشرة بلا أسباب فهذا خرق لنواميس الكون :

أراد أبرهة الأشرم أن يعتدي على الكعبة التي هي بيت الله الحرام:

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾

[سورة آل عمران: 69]

هذا بيت الله عز وجل، فلما أراد أبرهة الأشرم أن يعتدي عليه تولى الله رده، وبالمناسبة ما هو معروف أن النار تحرق السكين، والسيف يقطع، وهناك حوادث تقع دائماً، فالله سبحانه وتعالى جعل لكل شيء سبباً، وجعل لكل حدث علّة، خلق الكون، وخلق له قوانين وجعل له سنناً ونواميس، أي قواعد، فتجري الأفعال وفقها وخلالها، ولكن الله سبحانه وتعالى أحياناً يحرق بلا نار، مثلاً، هناك موت بسبب توقّف القلب والنبض، والجملة العصبية كفت عن العمل، وهناك أسباب كثيرة للوفاة، وقد تحدث وفاة بلا سبب، فربنا عز وجل قال:

﴿ أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾

إنّ هذا الفعل منسوب لله عز وجل، وهذا الفعل خلاف النواميس الطبيعية، أن تقول: إن هذه الطير معها جراثيم الجدري، وقد أصابت هذا الجيش، فهذا فعل الله المباشر، ولا يخضع لقوانيننا، ولا يخضع لنواميس الكون، وكيف أن البحر صار أرضاً تحت أقدام سيدنا موسى، فأى قانون هذا؟ وكيف أن النار كفت عن إحراق سيدنا إبراهيم؟ قال عز وجل:

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾

[سورة الأنبياء: 69]

ما يحدث في العالم دائماً له قواعد وله قوانين وله مبادئ وسنن ونواميس، ولكن أحياناً حينما تنسب الأفعال تُنسب إلى الله عز وجل، على أنه مسبب الأسباب، لكنك إذا نسبت الفعل إلى الله مباشرة بلا أسباب فهذا خرق لنواميس الكون.

## جعل الله عز وجل إهلاك أصحاب الفيل درساً للبشرية إلى انقضاء الزمان :

علماء التوحيد قالوا: النار لا تحرق إلا بإذن الله وإرادته، وجمعوا عقيدتهم هذه بكلمة (عندها لا بها)، أي عند وجود إرادة الله عز وجل في الإحراق فإنّ النار ستحرق، وإذا أراد الله عز وجل أن يحرق إنساناً أتته النار فأحرقته، هذا شيء أَلَفه الناس جميعاً، وهؤلاء الذين أرادوا أن يهدموا بيت الله الحرام، كأن الله سبحانه وتعالى لو أَلَهَمَ قريشاً أن تقاتلهم، وأن تنتصر عليهم لبدا ذلك أمراً طبيعياً، غزوة رُدت، وحرب انتهت، ولكن الله سبحانه وتعالى تولى بنفسه إنهاء هذه الحملة وسحقها وإحباطها، لأن هؤلاء اعتدوا على بيته، وهذا بيت الله الحرام، لذلك جعل الله عز وجل هذا الإهلاك درساً للبشرية إلى انقضاء الزمان:

### ﴿ أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾

العلماء قالوا: إنّ النبي عليه الصلاة والسلام ولد في عام الفيل، وكان من الطبيعي أن هناك أناساً عاصروا هذا الحادث، ولما وُلد النبي صلى الله عليه وسلم كان عمرُ بعضهم يزيد عن السبعين، فهذا لما كان عمره عشرين سنة رأى هذا الحادث، وبعضهم كان يزيد عن الثمانين، وثمة رجلان من قريش حينما بُعث النبي عليه الصلاة والسلام كان عمرهما يزيد على مئة وعشرين عاماً، فحينما كانوا في الستين رأوا هذه الحادثة، فلو أن هذه الحادثة لم تقع، أو وقعت بغير هذا الوصف، لردّها هؤلاء الذين عاصروها: وقالوا: محمد يكذب، لكن الله عز وجل وهو أصدق من قال روى شيئاً رآه أناس بأعينهم:

### ﴿ أَلَمْ تَرَى ﴾

أي عام الفيل، وحادثة الفيل من الأشياء التي استيقنها الناس قبل النبي وبعده، لذلك قال الله عز وجل:

### ﴿ أَلَمْ تَرَى كَيْفَ ﴾

لَمْ لم يقل: ألم تر ما فعل ربك بأصحاب الفيل؟ لم جاءت كلمة " كيف "؟ المقصود أن تقف عند الكيفية، كيف أن الله سبحانه وتعالى بيده كل شيء، وإذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، ولكن كن فيكون وفق الأسباب.

## هناك نوع من أفعال الله عز وجل لا تخضع للنواميس :

إذا طلب إنسان من الله الغنى، فهل يستيقظ صباحاً فيرى مئة ألف تحت وسادته؟ لا، يلهمه عملاً يدر عليه مالاً، ومع تتابع الأيام والشهور يصبح غنياً، فأغناه وفق النواميس، ووفق السنن والقوانين التي وضعها الله عز وجل، وهذا شيء نعرفه جميعاً، لكن هناك نوع من أفعال الله عز وجل لا تخضع للنواميس، مثلاً: يتزوج الرجل امرأة وينجب مولوداً، فإله جعل رحماً، وجعل مبيضين، وجعل أنبويين، وجعل حيواناً منوياً، وجعل هذا الحيوان يسبح في سائل، وسخر مئتين وخمسين مليون حيوان يتجه نحو المبيض، والمبيض فيه بويضة، والبويضة تختار أقوى هذه الحيوانات، يدخل هذا الحيوان البويضة

فيلقحها، ثم تنقسم البويضة عشرة آلاف قسم وهي في طريقها إلى الرحم، وهناك إذا وصلت تلتصق به، وتبدأ الخلايا تنقسم، ويزداد حجمها، فينشأ تخطيط أولي للدماغ، ثم للأحشاء، ثم للأعضاء، ثم للقلب، وهكذا يكبر الجنين حتى يبلغ تسعة أشهر وعشرة أيام، ثم يخرج إلى الدنيا، هذا النمط الذي خلقه الله عز وجل، وهذه سنة الله في خلقه، وهذا هو الناموس الأكبر، وهذا هو النظام بالتوالد، ولكن سيدنا آدم خلق بلا أب ولا أم، خلافاً لهذه القاعدة، وسيدنا عيسى خلق بلا أب، والسيدة حواء خلقت بلا أم، وقد يكون الإنسان متزوجاً، ويجعله الله عقيماً، هذه الحالات كلها، أب وأم لا أولاد، أب بلا أم، أم بلا أب، لا أب ولا أم، هذا ذكر واضح للحالات كلها، أما نحن جميعاً فمن أب وأم، وفق النواميس والقوانين والحقائق، لكن الله عز وجل لحكمة يراها خلق آدم بلا أب ولا أم، وخلق حواء بلا أم، وخلق سيدنا عيسى بلا أب، وجعل من الناس عقيماً، مع أنه تتوافر فيهم شروط الخلق، فلماذا؟ كي تعرف أيها الإنسان أن التزاوج وحده لا يكفي لإنجاب الأولاد، بل لا بد من مسبب الأسباب، وهو الله سبحانه وتعالى، لذلك قال تعالى:

**﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾**

[سورة الحديد: ٣]

الظاهر والباطن، الظاهر الذي يظهر لك، والباطن أحياناً يحدث الشيء بلا سبب، فمن هو السبب؟ الله سبحانه وتعالى، لذلك في موضوع الطب بعض الأبحاث تذكر أنّ هناك الشفاء الذاتي، حيث الطب يقف عاجزاً عن تفسير هذا الشفاء، كيف شفي؟ لا نعلم، حصل شفاء ذاتي، والأصح أن تقول: يد الله أحدثت هذا الشفاء بلا دواء، وربنا عز وجل قادر على أن يشفي بدواء وأن يشفي بلا دواء، حتى العلم، قال تعالى:

**﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾**

[سورة البقرة: ٢٥٥]

**في هذه السورة وعيد لقريش ومعاقبة لها وتطمين للنبي عليه الصلاة والسلام :**

أحياناً هذا العالم يعطيه ربنا طرف الخيط، يقول لك: حدثٌ إبداعي يتسلسل من مقدمة إلى نتيجة إلى حقيقة، وهذا الكشف تم عن طريق مقدمات وأسباب وأدلة وملاحظات، وما شاكل ذلك، وأحياناً تنكشف الحقيقة كاملة بلا مقدمات، إذاً هنا في هذا الموضوع أفعال الله سبحانه وتعالى في الأعم الأغلب وفق نواميس الكون، يغني بأسباب ويفقر بأسباب، يعطي بأسباب ويمنع بأسباب، يصح جسم الإنسان بأسباب ويمرض بأسباب، وقد يمرض بلا سبب، ويصح بلا سبب، وقد يغتني بلا سبب، لكن هذا لا يفعله الله عز وجل إلا لحكمة بالغة، ليعلمنا شيئاً، فذلك لو أن قريشاً وقفت في وجه أبرهة الأشرم وحرارته وانتصرت عليه لما كانت آيةً من آيات الله، حرب كما هي الحروب، لا بد من فريق ينتصر على فريق، ولكن الله

سبحانه وتعالى تولى بنفسه سحق هذه الحملة، لأنها اجتزأت على بيته الحرام، وعلى البيت العتيق الذي إذا دخله الإنسان شعر بالأمن والراحة، قال تعالى:

﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتِطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا  
وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾

[سورة آل عمران: ٩٧]

كان في هذه السورة وعيد لقريش، ومعاقبة لها، وتطمين للنبي عليه الصلاة والسلام، أي يا محمداً لا تخف فأنت رسولي، وهذا البيت بيتي، وسابقاً جاء أبرهة الأشرم ليهدمه فاننقمت منه، فلا تقلق، إني ناصرك، وإني معك، هذا معنى.

### للآية التالية معنيان :

قال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾

١ - المعنى الأول أن الذين يعارضون النبي ويكيدون له يجب أن يتعظوا بأصحاب الفيل:

هؤلاء الذين يعارضونك ليطفنوا نور الله عز وجل، هؤلاء الذين يكيدون لك، يكيدون لإخراجك من بيتك، ليقتلوك، ليثبتوك، هؤلاء يجب أن يتعظوا بأبرهة الأشرم، وبأصحاب الفيل، هذا المعنى الأول.

٢ - الله تعالى يعتب على الذين حماهم الله من غزو أبرهة ومع ذلك فهم يكفرون بنبيه:

المعنى الثاني: أن الله سبحانه وتعالى يعتب على هؤلاء الذين حماهم الله عز وجل من غزو أبرهة، ومع ذلك فهم يكفرون بنبيه عليه الصلاة والسلام:

﴿ أَلَمْ تَرَى ﴾

المقصود كيف؟ أي كيف تم ذلك؟ هل يُعقل لطائر، بحسب القوانين المألوفة، والنواميس المعروفة، والسنن المطبقة، أن طائراً يحمل حجراً، ربما لا يتمكن من حمله لكنه يسحق جيشاً بكامله، وأي طائر أبابيل، هذه الطيور لا تطير وحدها، لخوفها وقلقها وضعفها، فلا تطير إلا مجتمعة، وهذه الطيور ألقت الحجارة على هذا الجيش فجعلته كعصف مأكول:

﴿ أَلَمْ تَرَى ﴾

الشيء الذي أوقف عنده أيضاً، بعد أن قلنا: إنَّ (ألم) هي نفي النفي، ونفي النفي إثبات، لقد فعل ربك بأصحاب الفيل، وكلمة (ألم تر) تعني إخبار الله عز وجل من أعلى مستوى في اليقينيات، فيجب أن تأخذه كأنك تراه، فاعبد الله كأنك تراه، فإن لم تراه فإنه يراك.

كل أمر تأخذه عن الله عز وجل يجب أن تأخذه يقيناً كأنك تراه تماماً :

إن كل أمر تأخذه عن الله عز وجل يجب أن تأخذه يقيناً كأنك تراه تماماً، لذلك ربنا عز وجل يستخدم الفعل الماضي أحياناً بدلاً من الفعل المستقبلي، قال تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ \* مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾

[سورة المائدة: ١٦٦-١٧٧]

هذا شيء لم يقع بعد، إذ قال الله تعالى:

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾

[سورة الزمر: ٧٣]

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فَتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

[سورة الزمر: ٧٣]

إذا استخدمنا الفعل الماضي مكان الفعل المضارع فلمعنى جديد وهو تحقق الوقوع :

كل هذه المشاهد ساقها الله عز وجل بالفعل الماضي، وإذا استخدمنا الفعل الماضي مكان الفعل المضارع فلمعنى جديد، وهو تحقق الوقوع، وما وعد الله به كأنه وقع، قال تعالى:

﴿ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعَدَاً حَسَناً فَهُوَ لِأَقْبِهِ كَمُنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾

[سورة القصص: ٦١]

إذا كان الواحد منا مؤمناً ونرجو أن نكون جميعاً كذلك، وهو ينتظر وعد الله بالجنة فكأنه دخل الجنة، قال تعالى:

﴿ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعَدَاً حَسَناً فَهُوَ لِأَقْبِهِ كَمُنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾

[سورة القصص: ٦١]

صحابي جليل لشدة إيمانه بكلام ربه، قال: " وكأني بأهل الجنة ينتعمون وبأهل النار يتصايحون بعد أن قال له النبي: كيف أصبحت؟ فأجابه ذلك الجواب، فقال له: عبد نور الله قلبه بالإيمان، عرفت فالزم، عندما ترى إنساناً لا يدرس، كأنك تراه سائراً في مؤخرة الركب في المجتمع، وهو لا يزال طالباً، ولكن حاضره يدل على مستقبله.

## معنى الرب :

إذاً كلمة " ترى " تعني يجب أن تأخذ إخبار الله عز وجل وكأنك تراه، ونفي النفي إثبات، أي لقد رأيت، لم ير النبي ولكن الله أخبره بهذا، وليس في الأمة كلها من يستطيع أن يقول لا، لم يحدث هذا، لأن النبي صلى الله عليه وسلم عاصر معمرين رأوا بأعينهم ما فعله الله بأصحاب الفيل، وبعدها قال:

### ﴿ أَلَمْ تَرَى ﴾

الكيفية، تدخل مباشر من دون أسباب، لأن هذا البيت بيته والله تولى بنفسه حفظه:

### ﴿ أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾

أما كلمة (ربك)، لم يقل ربنا عز وجل ألم تر كيف فعل الله، أو فعل الإله، أو فعل القوي، قال: ربك، أي أنت في رعايته، وأنت في حفظه، فإنك بأعيننا، فكلمة رب توحى بالعطف والمودة والرحمة، فالرب هو المربي، وهو الممد، وهو الذي يصرف الأمور، وهو الذي يحل المشكلات، هذا هو الرب.

قد نستخدم في حياتنا اليومية كلمات، نقول: رب أسرة، ما معنى رب أسرة؟ أينساها بلا طعام؟ إذا مرض الابن أيتركه مريضاً؟ لا، بل يأخذه إلى الطبيب، وينفق على الأسرة من ماله ويرعاها، يرعى أجسامها ونفوسها بالتوجيه، ويقدم لها حاجاتها صيفاً وشتاءً وربيعاً وخريفاً.

هذا معنى الرب، فالمفهوم الصغير رب الأسرة رب البيت، لكن رب العالمين هو الذي يرعى كل مخلوق، ويقدم له ما يحتاج من طعام وشراب وكساء، ويقدم له ما يحتاج من توجيه وعناية وإرشاد ومعالجة.

## كيد الله إحباط لكيد الكفار وتآمرهم :

سمى عمل هؤلاء الذين قدموا مكة ليهدموا كيداً، فقال:

### ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴾

ما هو الكيد؟ عندنا شيان في الحياة، عندنا مواجهة، وعندنا كيد، فالإنسان إذا كان قوياً جداً ووثقاً من قوته لا يكيد، بل يواجه عدوه رأساً، فمن الذي يكيد؟ إنه الضعيف، يدبر مؤامرة، وخطة للتغلب على عدوه القوي، لذلك ربنا قال:

﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا \* وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾

[سورة الطارق: ١٥-١٦]

كيد الله سبحانه وتعالى ليس من نوع كيدهم، هم لضعفهم يكيّدون، ولكن الله سبحانه وتعالى يدافع عن عباده المؤمنين، فيكيد لهم خطة معاكسة تفشل خطتهم، قال تعالى:

﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا \* وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾

[سورة الطارق: ١٥-١٦]

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾

[سورة الأنفال: ٣٠]

فكيد الله إحباطاً لكيدهم وتأمراً بهم، ليس لك أن تقول: الله ماكر، ولا كائد، هذا تدبير يقابل كيدهم ومكرهم:

﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا \* وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾

[سورة الطارق: ١٥-١٦]

﴿ وَمَكْرُؤًا وَّمَكْرَ اللَّهِ ﴾

[سورة آل عمران: ٥٤]

الله تعالى دفاعاً عن أوليائه وعن المؤمنين يدبر خطة تقابل خطة أعدائهم ويفشلها:

إنّ الله سبحانه وتعالى دفاعاً عن أوليائه وعن أحبائه وعن المؤمنين يدبر خطة تقابل خطة أعدائهم، فتصبح هذه الخطة محبطة فاشلة، وهذا الذي عناه الله سبحانه وتعالى:

﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴾

لقد رسم أبرهة خطة لهدم الكعبة، وتحويل الناس إلى صنعاء، وكان هذه الكعبة من صنع قريش، وأنها تأتيهم بالمكاسب، وما شابه ذلك.

﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴾

معنى تضليل: أي ضاع عنهم هدفهم، ولم يحققوا مرامهم، كيف جعل كيدهم في تضليل؟ لقد أرسل عليهم طيراً أبابيل، أي ضعاف الطير، أحياناً يموت الإنسان من ضربة قوي، ولكن إذا مات من ضربة ضعيف فيكون مع موته إهانة، هناك مثل عربي يقول: لَوْ ذَاتُ سِوَارٍ لَطَمْتَنِي، أي لو لطمته أمة جارية لتألم، أهذه تلطمني؟ ولو أن ذات سوار لطمتمني، أي لو كان حرة لهانت المصيبة، أما أن تلطمني جارية فهذه المصيبة كلها. أحياناً الإنسان تدهسه سيارة قمامة، مشكلة، ولو كانت غيرها لهان الخطب، فهذا مع الدمار إهانة.

﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾

أضعف أنواع الطير، ولو أن الله سبحانه وتعالى سلط عليهم صقوراً جارحة مخيفة، لو سلط عليهم وحوشاً كاسرة، لكان الأمر مقبولاً، لكن:

### ﴿ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾

لقد ماتوا على أئفه سبب.

عند الله عز وجل كل قذيفة عليها اسم من تدمره فليس ثمة طائش عند الله كله صائب:

قال تعالى:

### ﴿ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ﴾

قال بعض المفسرين: الحجارة من سجيل هي كل حجر من طين قاس، وبعضهم قال: من سجيل مسجل عليها اسم من تقتله، وإذا قسنا على هذا فليس هناك قذيفة طائشة أبداً، لعله أصابته قذيفة طائشة، طائشة عندك أيها الإنسان أما عند الله فليس ثمة طائش كله صائب، كله يصيب الهدف تماماً، بحسب الخطة التي رسمت له، لذلك حتى في الحروب الحديثة، قنابل وصواريخ، شيء طائش، قذف عشوائي، أما عند الله عز وجل كل قذيفة عليها اسم من تدمره.

### ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ \* تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ \* فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾

هذا من الأدب القرآني، العصف روث البهائم، فإذا أكلت الدابة تبناً خرج منها بعض قطعه الصغيرة في روثها، وهذا منتهى الضعف والإهانة:

### ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾

أي كطعام أكل، وظهر في البراز، وظهر في الروث.

البلاء عامٌ والرحمة خاصة :

قال تعالى:

### ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ \* تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ \* فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾

في القرآن آية مشابهة، فسينا إبراهيم جاءته رسل الله عز وجل:

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ \* قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ \* لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ \*

مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾

[سورة الذاريات: ٣١-٣٤]

مسومة أي كل حجر عليه اسم صاحبه، هذه تقتل فلاناً، وهذه فلاناً، حتى لا يقول أحد: والله هذا شيء يحير، يذهب البلاء بالطائع والعاصي، لا، البلاء عامٌ، والرحمة خاصة، قال تعالى:

﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ \* فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ \* وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾

[سورة الذاريات: ٣٥-٣٧]

كل شيء وقع في الكون هو خير :

أول عملية أخرج المؤمنون والمسلمون، ثم تم الهلاك والدمار، لا خطأ عند ربنا عز جل، ولا قذف عشوائي، ولا طائش، ولا خطأ، ولا صدفة، مرة أراد إنسان أن يتوظف فطلب منه شهادة صحية، فحص شعاعي، ذهب إلى مكان الفحص وفحص صدره، بعد يومين، أخذ النتيجة فإذا هي سلبية، معه بواذر مرض السل، فأعلم أهله، وابتعدوا عنه، وعزلوه، الطعام وحده، صحنه خاص به، وكذلك المنشقة، فهذا الإنسان انزوى، وشعر بالدمار، وشعر بمصيره الأسود، فتألم، وبكى يأس من الحياة، وبعد ذلك أشرق في نفسه بصيص الأمل، لعل الله يشفيني، فتاب إلى الله، وصلى، وذهب أبوه إلى المشفى مرة ثانية، فإذا بموظفي المشفى كانوا قد أعطوه نتيجة رجل آخر، وهو معافى أصلاً، لكنهم أخطؤوا معه، فخطؤهم معه عند الله صواب، لأنه ردّه إليه بهذه الطريقة، فالإنسان يخطئ، والله لا يخطئ، حتى إنّ خطأ الإنسان يُوظف لمصلحة إنسان آخر، فليس عند الله خطأ، فإذا أخطأت فإنّ الله لا يخطئ، فحينما سمح الله لهذا الحدث أن يقع فهو خير، أي حادث، وما دام وقع فهو خير، لكن ليس خيراً مطلقاً، بل هو خير نسبي، فتح البطن وشقه، وإزالة الصفراء، هذا ليس خيراً مطلقاً، لكنه خير نسبي، لمن يشعر بالآلام الزائدة، ولمن يصيح طوال الليل، فخير له أن يُفتح بطنه، وأن تُستأصل هذه الزائدة، أو هذه الذائدة في التعبير الآخر، فهذا خير نسبي، أما المطلق فبالأ احتاج لهذه العملية، فكل شيء وقع في الكون هو خير، قال تعالى:

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ  
بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

[سورة آل عمران: ٢٦]

العطاء خير والمنع خير، والعز خير والذل خير، وكله خير بخير، والله سبحانه وتعالى لا يقضي لعباده إلا خيراً.

الحكاية الربانية درس بليغ فلا تخف من عدوك الكافر لأن الله أكبر منه :

قال تعالى:

﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ \* تَزِمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ \* فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾

هذه السورة القصيرة بل هذه القصة الموجزة هذه يسمونها حكاية، لأنه حدث واحد، هذه الحكاية الربانية درس بليغ إلى نهاية المطاف، فلا تخف من عدوك الكافر لأن الله أكبر منه:

﴿ أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾  
﴿ أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ  
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾

[سورة المائدة: ٦٧]

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾

[سورة النمل: ٧٩]

إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله، وإذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتق الله، وإذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في أيدي الله أوثق منك بما في يديك، لماذا فعل ربك ذلك بأصحاب الفيل؟ ولماذا جعل كيدهم في تضليل؟ ولماذا أرسل عليهم طيراً أبابيل؟ ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول؟